Available online at http://jgu.garmian.edu.krd

Journal of University of Garmian

https://doi.org/10.24271/garmian.2023.10254

الخطاب القرآني المباشر للمرأة مقارنة بالرجل . آيات مختارة .

عبدالرحمن محمد صالح

قسم اللغة العربية، كلية التربية الأساس، جامعة راپەرين، إقليم كردستان العراق

Article Info

Received: September, 2022

Revised: November, 2022

Accepted: November, 2022

Keywords

الخطاب، المباشر، الرقة، الشدة، الآية

Corresponding Author

Abdulrahman.muhammed@uor.edu.krd

الملخص:

يتنوع خطاب الله تعالى في القرآن الكريم حسب ما يقتضيه الخطاب أو الموقف، ومن بين تلك الأنواع هو الخطاب المباشر للشخص عينه: إذ للشخصيات كلهم خطاب ملائم ومنسق لحالته الخاصة، وعلى هذا المبنى كُتب هذا البحث الذي استقرّ عنوانه على (الخطاب القرآني المباشر للمرأة مقارنة بالرجل . آيات مختارة .)، الذي يدور حول خصلتين من خصال خطاب الله . تعالى . في القرآن الكريم، وهما: رقة الخطاب وليونته حال مخاطبته . سبحانه وتعالى . المرأة، وعلى عكسه الشدة والواقعية في الخطاب حين مخاطبته . سبحانه . الرجل، والبحث حاول التفريق بينهما من خلال عرض الآيات التي تحوي خطاب الله المباشر للمرأة والرجل، وهذا بالنظر إلى الحالة النفسية والجسدية لكلا الجنسين، وأنّ لكل منهما صفات مختلفة، وهذا الاختلاف قد راعاه الله . تعالى . في خطابهما: إذ ينماز الخطاب مع الأنثى بالمؤانسة والرقة، في حين يُرى نوعا من الشدة والواقعية في الخطاب تجاه الرجل.

وعلى الفكرة المطروحة استقرّ البحث على مبحثين: مبحثٌ تناول الآيات المتعلقة بخطاب الله مع المرأة، والآخر حوى الآيات التي تضم خطاب الله . سبحانه . تجاه الرجل وصار أهم النتائج المستنبطة وترتيب المصادر المستعانة بها ختاما لهذا الجهد المتواضع.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي به ثقتي وعليه توكلي وما توفيقي إلّا به، والصلاة والسلام على حامل الرسالة التي نوّر بها سبيلنا محمد رسول الله ﷺ, وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد:

الخطاب القرآني كما هو مبان لدى المعنيين به خطاب دقيقٌ عميقٌ متأنٍّ شامل، وهو بيئة مثمرة مميزة عن غيرها من البيئات اللغوية؛ إذ إنّ القرآن نصٌ مبارك منزّل من لدن الله . تعالى . باللغة العربية الفصيحة التي لا يمكن لكلمة سد مكان كلمة أخرى بسبب تماسكه النصي وروابطه اللفظية التي ينماز بها هذا الكتاب الخالي من الريب المعنوي واللفظي. هذا الخطاب لاشك فيه تنوع وتعدد في توجيهاته، إذ يحوي خطابات متعددة، منها الخطاب: الخاص، العام، الجنس، المعيّن، النوع، المدح، الذم، التكريم، والتهكم، وأنواع أخرى من الخطابات الواردة في القرآن الكريم (ينظر: إبراهيم، 2012: 11).

وهذا البحث محاولة لإبراز خطاب الله . تعالى . تجاه المرأة والرجل خطابا مباشرا معينا، وتوجه قلم الباحث إلى بيان الرقة الموجودة في خطابه . تعالى . حين مخاطبته النسوة، وخلاف ذلك يوجد نوع من الشدة الملائمة تجاه الرجل في نماذج مختارة من الآيات المباركة من القرآن الكريم، وهذا منطلقا من مراعاة الله . جلّ شأنه . لكينونة كلا الجنسين وحالتهما الفسيولوجية والنفسية، إذ إنّ خطاب الله . تعالى . في القرآن روعي فيه النفسية المهيئة رعاية تامة، وما قاله الكفوي (ت 1094 هـ) في تعريف الخطاب يمكن جعله نقطة نظرية لدخول النماذج التطبقية إذ قال: ((الخطاب: اللّفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه)) (الكفوي: 419)، شروعا من هذه النقاط أُختير البحث للدراسة وثبت

العنوان على (الخطاب القرآني المباشر للمرأة مقارنة بالرجل . آيات مختارة .).

وما يتعلق بالدراسات السابقة لهذا الطرح، فقد وجد الباحث باقة من الدراسات المكونة من الكتب والرسائل الجامعية والبحوث حول الخطاب في القرآن الكريم عموما، كذلك المرأة في القرآن وخطابها، منها: كتاب (المرأة في القران الكريم) للشعراوي (ت 1419 هـ) (رحمه الله)، و(خطاب امرأة عمران في القرآن دراسة بلاغية تحليلية) لـ د.عويض العطوي، وهناك بحث منشور باسم (خطاب المرأة اللغوي في القرآن) لـ (هالة حسني وفاطمة محمد)، إلّا أنّ هذه الدراسات والكتب لم تطرق إلى الخصوص الدقيق الذي خاضه البحث هذا في رقة الخطاب وخلافه بين المرأة والرجل، وإنما اكتفت تلك الدراسات وغيرها ـ حسب علم الباحث ـ بالأمور الاجتماعية والنفسية والدينية للمرأة في القرآن الكريم.

ومنهجية بحثنا هذا يمكن تسميتها بالمنهج الوصفي التحليلي، إذ من خلالها تطرقنا إلى تحليل الآيات تحليلا دلاليا مستعينا بالتفاسير والمعجمات، وهناك نقطة تتوجب الإشارة إليها وهي: أنّ هذا البحث لم يدخل في المقارنة المباشرة بين آيات الرجال والنساء إلّا في آيتي زكريا ومريم **(عليهما السلام)**؛ وذلك لأنّ ليس هناك مقابل كل خطاب إلهي للرجل خطاب مباشر مماثل للمرأة، وعلى هذا الأساس تطرقنا إلى الآيات بوصفها مستقلة عن الأخرى.

ولإغناء البحث استعان الباحث بمجموعة من المصادر أهمها: تفاسير القرآن الكريم ومن بينها: تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي سعود (ت 982 هـ)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (ت 1393 هـ)، كذلك المعجمات وبعض كتب أخرى.

وتتكون خطة البحث من مقدمة ومبحثين: المبحث الأول: تناول فيه الباحث الآيات المختارة المتعلقة بالمرأة، والمبحث الثاني: يحوي الآيات المرتبطة بخطاب الله ـ تعالى ـ للرجال، وانتهى البحث برزمة من النتائج الملائمة والمستنبطة من البحث، ورُتّبت الآيات كما وردت في القرآن الكريم تسلسلا.

وختاما نقول: إنّ هذا البحث محاولة لإبراز جانب من جوانب خطاب الله ـ تعالى ـ في آيات من القرآن الكريم، وهذه المحاولة بوصفها عمل قد أُجري من لدن إنسان يُنتظر منه الصواب والخطأ، فإذا أصبنا في شيء فمن الله ـ سبحانه ـ وحال خطئنا نستغفر الله ـ تعالى ـ على الهفوات والزلات كلها.

المبحث الأول: خطاب المرأة

توطئة:

المرأة في القرآن الكريم أحد الجنسين: الذكر والأنثى من نوع الإنسان، ولها في الخطاب القرآني خصائص تختلف عن الرجل تبعا للاختلافات بينهما، والتي نصّها القرآن الكريم على لسان امرأة عمران في قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: 36]، ومن أبرز الخصائص التي ذُكرت في القرآن على سبيل المثال لا الحصر هي: (السكن) وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، كذلك (الضعف)، قال ـ جلّ شأنه ـ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: 23]، و(الحياء) قال ـ جلّ شأنه ـ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:25]، كذلك (النسيان) قال ـ تعالى ـ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: 282]، وصفات أخرى صريحة أو ضمنية، منها: الغيرة، والزينة ... إلخ من الصفات التي تختص بها المرأة أو بها تُعرف (ينظر: العقاد، 2014: 5، و الإبراهيم، 2012: 29).

وماعدا تجسيم الصفات المرتبطة بالمرأة فإنّ المتأمل في كتاب الله ـ تعالى ـ يجد أنّ الله ـ سبحانه ـ قد أولى المرأة عناية بالغة، حتى سورة كاملة سميت سورة النساء، والباب في هذا المجال واسع (ينظر: الشال، 2011: 22)؛ لكن المبحث بصدد الخطاب المباشر القرآني تجاه المرأة، وما جاء ذكره مدخل للدخول في إبراز الصفة التي نريد وضعها أمام العيان في مراعاة الخطاب القرآني للمرأة من الليونة واللطافة البارزة وقت مخاطبة المرأة في القرآن الكريم، وذلك شروعا من الصفات المذكورة وغيرها في تكوين المرأة النفسية والجسمية، وما يأتي آيات مختارة التي فيها خطابات مباشرة للمرأة.

. مريم **(عليها السلام)**:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾ [آل عمران: 42-47].

هذه الآيات المباركة جاءت معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)﴾ [آل عمران: 35] أي: عطف القصة على القصة، فإنّ الله ـ تعالى ـ بعد أن ذكر ما قالته امرأة عمران عندما أحست بالحمل وبعد ولادتها لمريم

(عليها السلام)، وما كان من شأنها وتربيتها وكفالتها، بيّنَ . سبحانه . ما كان من أمر مريم **(عليها السلام)** بعد أن بلغت رشدها واكتمل تكوينها، وجاء بقصة زكريا **(عليه السلام)** بين قصة الأم وابنتها لما بينهما من مناسبة؛ إذ إنّ دعاء زكريا **(عليه السلام)** ربّه كان سببه ما رآه من إكرام الله . سبحانه . لمريم **(عليها السلام)**، والبيان كله لإبراز اصطفاء آل عمران. (ينظر: الطنطاوي، 1998: 101/2).

وما يتعلق بخطاب الله . تعالى . مع مريم **(عليها السلام)** يبدأ بالتحاور معها بندائها[1] وهذا إشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاءِ والتنبيهِ على استقلالها وانفرادِها عن الأحكام السابقة: فإنّها من أحكام التربية الجُسمانية اللائقة بحال صِغَر مريمَ، كذلك من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعيةِ المتعلقة بحال كِبَرِها (أبو سعود: 35/2)، فضلا عن أنّه متعلق بلطافة التحاور معها نظرة لحالها وتلطفا معها، ولا يقف الخطاب اللين عند النداء المباشر فحسب، بل بعده تأتي باقة من الأنس والإعتناء بقلبها الرقيق إذ قال الله . جلّ جلاله .: ﴿يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا الأنس والاعتناء يظهران من خلال كلمتين غليظتين: (الاصطفاء والطهارة) والتي جاءت الغلظة من حرفين من أحرفهما، وهما: (الصاد والطاء) اللتان من صفاتهما: الاستعلاء والإطباق ومن ثم التفخيم (ينظر: السويد،2011: 153/1و159)، لكنهما رقيقتان في المعنى، إذ إنّ الصفاء: خلاف الكدَر وخالص شيء (ينظر: الجوهري، 1987، (صفو): 2401/6) والطهر أكثر نقاوة من الأولى كما قال ابن فارس (ت 395 هـ): ((الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح يدل على نقاء وزوال دنس. ومن ذلك الطهر، خلاف الدنس. والتطهر: التنزه عن الذم وكل قبيح. وفلان طاهر الثياب، إذا لم يدنس)) (ابن فارس، 1979، (طهر): 428/3)، وزد على ذلك هو أنّ (الاصطفاء) في الآية معادة، والإعادة في اللفظة القرآنية لا تدل على المعنى نفسه، بتعبير آخر: أن المذكور في هذه الآية أولا: هو الاصطفاء، وثانيا: التطهير، وثالثا: الاصطفاء على نساء العالمين، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء الأول من الاصطفاء الثاني، لما أنّ التصريح بالتكرير غير لائق، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لمريم **(عليها السلام)** من الأمور الحسنة في أول عمرها، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها (ينظر: الرازي، 1420هـ: 217/8). و (طهّرك) أي: من الكفر، وما يستقذر من الأفعال ومما قرفك به اليهود (ينظر: الزمخشري، 1407هـ: 361/1، والقرطبي،1964: 82/4) ، والشعراوي (ت 1418هـ) (رحمه الله) يلتفت إلى شيء جميل في صدد قوله على الاصطفاء الثاني بقوله: ((ثم أورد الحق . سبحانه . أنه طهّرها، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثاني المسبوق بـ "على" فقال [واصطفاك على نِسَآءِ العالمين] إذن: فهذا خروج للرجال عن دائرة هذا الاصطفاء [الخاص من بين النساء]، ولن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة؛ فهي مصطفاة على نساء العالمين، فكأنه لا توجد أنثى في العالمين تشاركها هذا الاصطفاء؛ لماذا؟ لأنها الوحيدة التي ستلد دون ذكر، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد)) (الشعراوي،1997: 1453/3، وينظر: الطنطاوي، 1998: 102/2).

وكلّ ما تقدم: إيناسات ورعاية لكينونتها وتعاطف معها وجعلها مستعدة للحدث الذي سيأتي من بعدها، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها **(عليها السلام)**؛ ومن أجل ذلك يمهد الله له تمهيدا مناسبا حتى تتأكد من أنّ هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش الكرامة (ينظر: الشعراوي،1997: 1453/3). بالإضافة إلى ذلك يأتي نداء آخر: وهذا أيضا دالّ على الإعجاب والمؤانسة والرقة؛ إذ من ذكر الاسم وتكراره أثناء التحاور يحصل نوع من التودد و الترحم، لقصد الإعجاب بحالها؛ لأنّ النداء الأول كفى في تحصيل المقصود من إقبالها لسماع كلام الملائكة، فكان النداء الثاني مستعملا في مجرد التنبيه الذي ينتقل منه إلى لازمه وهو التنويه بهذه الحالة والإعجاب بها (ينظر: ابن عاشور، 1984: 244/3). وقبل أن يأتي الله . تعالى . بالخبر العجيب والثقيل على قلبها يداوم بملامسة قلبها الرقيق بأمرها القنوت والسجود والركوع، فهذا بمثابة التهيؤ لما بعدها وذلك ليطمأن قلبها، لم لا؟ إذ بذكر الله تطمئن القلوب كما ذكره . ﷻ . بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: 28]، فالخبر الآتي محزن وشديد يحتاج إلى ثقة الرجال وثبات الجبال، وهذا ما وفره الله . تعالى . لها عندما أذّن لها بالركوع مع الراكعين الذكور فجعلها بمثابة قوتهم، واستثناها الله . تعالى . من بين النساء بني اسرائيل بذلك، ((وقوله: "مع الراكعين" إذنٌ لها بالصلاة مع الجماعة، وهذه خصوصية لها من بين نساء إسرائيل إظهارا لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء، ولذلك جيء في الراكعين بعلامة جمع التذكير. وهذا الخطاب مقدمة للخطاب الذي بعده وهو [يا مريم إنّ الله يبشرك بكلمة منه] لقصد تأنيسها بالخبر الموالي؛ لأنّه لما كان حاصله يجلب لها حزنا وسوء قالة بين الناس، مهد له بما يجلب إليها مسرة، ويوقنها بأنها بمحل عناية الله، فلا جرم أن تعلم بأن الله . تعالى . جاعل لها مخرجا وأنه لا يخزيها)) (ابن عاشور، 1984: (244/3).

يُرى من هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول **(عليها السلام)**: قد مدح الله مريم

[1] لا يدخل البحث في مسألة نبوة مريم **(عليها السلام)** أوعدم نبوتها التي تحمل الخلاف بين المفسرين، وللتفصيل، ينظر: (الرازي، 1420هـ: 217/8، والبيضاوي، 1418هـ: 16/2، ابن عاشور، 1984: 244/3).

مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة، فلقد أخبر سبحانه ـ باصطفائها صغيرة وكبيرة، وبطهرها من كل سوء، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى، وذلك لما لابس مولد سيدنا عيسى **(عليه السلام)** من خوارق، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب ويتهمونها زورا وبهتانا بما هي بريئة منه، ثم بعد ذلك يأمرها سبحانه ـ بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين (ينظر: الطنطاوي، 1998: 104/102/2).

ثمّ يأتي الأمر العظيم والنبأ الثقيل: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)﴾ [آل عمران: 45] هنا تدخل مريم **(عليها السلام)** في مرحلة جديدة، مرحلة تحتاج إلى ثبات وقلب وقوي لخبر صادم، لكن الله ـ سبحانه ـ فضلا عن التمهيد الذي قد مهده لها من قبل، يعيد النداء مرة أخرى للمؤانسة واللطافة وتأتي من بعده الكلمة الجميلة الرقيقة والمفرحة ضمن هذا الخبر الصادع وهي: (البشارة) إذ من معانيها: حسن الوجه والجمال، كذلك إصدار خبر مفرح وخير(ينظر: ابن فارس، 1979، (بشر): 251/1، والجوهري، 1987، (بشر): 590/2)، أي: أنّ البشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح.

والسؤال هو: كيف يكون خبرا كولادة سيدنا عيسى **(عليه السلام)** في هذه الحالة الخاصة يتصف بالبشارة؟! والجواب يكون من خلال نقطتين: أولاهما: إنّ في هذا الخبر فرح ضمني وذلك من خلال الكلمة نفسها أي: (يبشرك)، ثم يشرح المولود المنتظر شرحا مفصلا إذ هو: المسيح وعيسى وابن مريم، بكنية اسم ولقب؛ وكل امرأة تفرح بحقيقة أموميتها، فنسبة طفلها إليها كان بمثابة حضنها له قبل الولادة، وثانيهما: نجدها في الآية الأخيرة ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾ فنرى أن مريم **(عليها السلام)** قد تعجبت من الخبر، والالتفاتة الجميلة هي أنّ مريم قد نادى الله ـ تعالى ـ مع أنّ الذي كان يخاطبها كان ملك؛ لكن هنا ظهر تأثير الخطاب الممهد اللين معها إذ شعرت باطمئنان ومؤانسة، وردّا على مناداتها لثلاث مرات وإحساسها بأنّها من الله ـ تعالى ـ فقالت: (ربّ) كما جاء في التحرير والتنوير: ((قوله: قالت ربّ جملة معترضة من كلامها بين كلام الملائكة، والنداء للتحسر وليس للخطاب؛ لأنّ الذي كلمها هو الملك، وهي قد توجهت إلى الله))(ابن عاشور، 1984: 248/3) ثم تسائلت مرة: [أنى يكون لي ولد] وبينت مرة: [ولم يمسسني بشر]، والجواب: كما قال الشعراوي: ((قالت لنفسها: إنّ نسبته بأمر الله هي لي، فلا أب له، لقد قال الحق: إنه «ابن مريم» ولذلك جاء قولها: [وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ] ذلك أنّه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب، هكذا نرى فطنة التلقي عن الله في مريم البتول، لقد مرّ بها خوف عندما عرفت أنّ عيسى **(عليه السلام)** منسوب إليها وقالت لنفسها: إنّ الحمل بعيسى لن يكون بوساطة أب، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسني بشر. وقال الخالق الأكرم: (كَذَلِكِ) أي: لن يمسك بشر، ولم يقل لها: لقد نسبناه لك لأنك منذورة لخدمة البيت)) (الشعراوي، 1997: 1469/3) أي: قد برأ الله مريم مما خافت منه وتأكدت أكثر بأنّ الأمر من الله وهي نزيهة، ويستمر الله ـ تعالى ـ بمؤانستها بوصفه لعيسى **(عليه السلام)** وإعطائه المعجزات استرسالا لتهدئة نفسية مريم**(عليها السلام)** واستشعارها باطمئنان وهدوء للإقبال على المرحلة القادمة، كذلك تغيير الخبر من الصدمة إلى الخبر بوصفه بشارة ونعمة، قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)﴾ [آل عمران: 48، 49]، وهذه استنتاج على أنّ الخبر صار بشارة وهي ملخصة من هذه الصفات كلها التي يتميز بها عيسى (عليه السلام) بإذن الله.

.أم موسى:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص: 7].

هذه الآية المباركة على ما تبدو مليئة بالأوامر والنواهي على أمّ موسى، ولكن في هذه الأوامر والنواهي قد روعي نفسية أم موسى أشد رعاية، والآية حَوَت جزء من سيرة سيدنا موسى **(عليه السلام)** ومعجزة من معجزات الله ـ تعالى ـ وهي: نجاة موسى **(عليه السلام)** من القتل الذي أمر به فرعون على الأولاد من بني إسرائيل، وتشاء إرادة الله أن ينشأ موسى **(عليه السلام)** في قصر فرعون.

تبدأ الآية بعبارة (أوحينا): والوحي في اللغة تعني: إلقاء على ـ في إخفاء أو غيره ـ إلى غيرك، كذلك الوحي يأتي بمعنى الإشارة (ينظر: ابن فارس، 1979، (وحي): 93/6)، فالوحي إلى أمّ موسى: كان وحيا عن طريق النّفث في الروع، أو الإلهام، أو برؤيا، أو بملك يكلمها، كلها تصح تسميتها بالوحي من الله (ينظر: الشعراوي، 1997: 10881/17)، واستخدام الوحي هنا منسجم مع سرية إرضاع موسى وإخفائه من يد فرعون؛ إذ إنّ الوحي هو الإعلام في خُفية؛ لذلك أكثر المفسرين اتفقوا على أنّ معنى قوله ـ سبحانه ـ [وأوحينا إلى أم موسى] هو إلهامها وألقى هذا المعنى في قلبها (ينظر: السمعاني،1997: 122/4، والبقاعي:243/14).

قصة الآية مسبوغة بأنّ أمّ موسى كانت في حالة نفسية مضطربة وكانت قلقة للغاية على ابنها، لكنّ الله ـ جلّ جلاله ـ يؤنسها بقوله [أن أرضعيه]، وهذا دال على أنّ أمها كانت مرضعة له؛ لأنّ كل امرأة إذا وُصفت بإرضاع الولد صارت مرضعة (ينظر: الجوهري، 1987، (رضع): 1220/3)، ولا شكّ أنّ الأمهات يطمئنّ إذا أرضعن أولادهنّ، وهذه أولى الإشارات إلى مؤانسة أم موسى إذ يجعل الله نفسها مستقرة وقلبها مطمئنة؛ لإنّ الخبر الآتي يحتاج إلى الهدوء والطمأنينة، وهو: [فإذا خفت فألقيه في اليم]: الخوف حالة نفسية تعتري الإنسان، فيجعله مضطرب المشاعر لتوقعه حصول أمر يكرهه، والله ـ تعالى ـ عالم بحال نفسية أم موسى وعالم بخوفها عليه؛ لذلك يأمرها بأن تلقي موسى **(عليه السلام)** في البحر إذا كانت خائفة؛ حتى لا يحصل كره له وتكون هي حزينة بجانب أنها خائفة. فألقيه في اليم، أي: البحر المراد به نهر النيل، وسمّي بحرًا لاتساعه، وإن كان الغالب إطلاق البحر على المياه غير العذبة (ينظر: الطنطاوي، 1998: 379/10).

بعدما كان الأمر الأول لها إرضاعا لابنها كان بمثابة جرعة فرح وسعادة، غير أنّ الأمر الثاني بمثابة الصاعقة؛ فجعلها أن تكون بين أمرين في قرارة نفسها: إمّا أن تبقي موسى وهذا خطر عليه، وإمّا أن تنفذ أمر الله ـ تعالى ـ في إلقائه في البحر، والله ـ تعالى ـ يعطيها الاختيار بقوله: [فإذا خفتِ]، وهذا إشارة واضحة لاستلطاف نفسية أم موسى، لكن في الوقت ذاته مَن مِن النساء تقبل إن خافت على ابنها أن تلقيه في البحر؟! مَن ترضى أن تنجي ولده من موت مظنون إلى موت محقق؟! ـ في زعم الإنسان ـ لكنّ الله ـ جلّ شأنه ـ جعل عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذي أتاها، ويهيء الخالق ـ سبحانه ـ امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهي لموسى **(عليه السلام)**، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص: 9] (ينظر: الشعراوي، 1997: 10879/17).

وفضلا عما سبق قد وردت مسألة وحي الله تعالى لأم موسى في كتاب الله ـ تعالى ـ مرتان: المرة الأولى: هي الآية التي بصددها البحث، والمرة الثانية قوله تعالى في سورة طه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ...﴾ [طه: 38، 39]، والفرق بين الوحي الأول والثاني يمكن إيجازه في أنّ: الوحي الأول خاص بالرضاعة في مدة الأمان، أمّا الآخر بعد أن خافت عليه أوحى إليها لتقذفه في اليم، والقذف: إلقاء بقوة وهو يدل على الرمي والطرح (ينظر: ابن فارس، 1979، (قذف): 68/5)؛ لا أن تضعه بحنان ورفق، فإنّ الوحي الأول جاء تمهيدا لما سيحدث؛ لتستعد الأم نفسيا لهذا العمل، ثم جاء الوحي الثاني للممارسة والتنفيذ؛ لذلك يختلف أسلوب الكلام في الوحي الأول فيأتي ترتيبا مطمئنا وتكون النبرة نبرة هادئة؛ لأنّ المقام مقام نصح وتمهيد لمقام أحداث وتنفيذ، أما الوحي الثاني فيأتي في سرعة ونبرة حادة [أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ...] فالعجلة في اللفظ تدل على أنّ المقام مقام المباشرة للحدث فعلا (ينظر الشعراوي، 1997: 10883/17).

بما أنّ الله ـ جلّ جلاله ـ كان يراعي مشاعر الأم وقلقها على ولدها؛ أتى بأمرين متتاليين بعدهما نهيين بطعم البشارة [ولا تخافي ولا تحزني]، أي: ((لا تخافي عليه الهلاك من الإلقاء في اليم، لا تحزني على فراقه، والنهي عن الخوف وعن الحزن نهي عن سببهما وهما توقع المكروه والتفكر في وحشة الفراق)) (ابن عاشور، 1984: 75/20)، وقوله تعالى: [إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين] أكثر من البشارة وهي في موقع العلة للنهيين؛ لأنّ ضمان رده إليها يقتضي أن لا يهلك وأن لاتشتاق إليه بطول المغيب، وهذا الخبر والبشارة كان لا بدّ منهما؛ إذ إنّ الأمر كان صعبا عليها فأصبحت تقبل ما يأمر به وتكون حزينة لفراقه وفي الوقت ذاته سعيدة لهذه البشارة، حتى وصل الأمر عندها بما تسمى بـ (متعة الألم)، والآية لا تقف عند هذا الحد بل فيها بشارات كبيرة لقلبها الرقيق الأمومي وهي: [وجاعلوه من المرسلين] وبهذا تدخل المسرة إلى قلبها وتستقر نفسيتها أكثر (ينظر: ابن عاشور، 1984: 75/20)، وتأخذ ضمانا على أنّ موسى **(عليه السلام)**لا يبقى فحسب بل يكون له شأن كبير وعلو في الكعب.

والخلاصة هي: أنّ في هذه الآية خبران: (أوحينا) و(فإذا خفتِ)، كذلك يوجد أمران: (أرضعيه) و(وألقيه)، ونهيان: (لاتخافي) و(لاتحزني) وهما بمثابة حلقة وصل بين الأمرين والبشارتين اللتين تأتيان في الأخير: [إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين]، كأنّ الله ـ تعالى ـ يقول: تنفيذ أوامر الله ـ تعالى ـ دون خوف وحزن يكون ثمرته البشارة المحققة في الأخير كما أشار إليه الله ـ عزّ وجل ـ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ **[القصص: 13، 14].**

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص: 13، 14].

فإذا خفت | ألقيه في اليم

نساء النبي **(رضي الله عنهن)**:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب: 28-31].

هذه الآيات ولاسيّما الآيتان في البداية متصلتان بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي (ρ) كما أشار إليه المفسرون (ينظر:الطبري، 2000: 251/20، والواحدي، 1415هـ: 864، والسمعاني، 1997: 275/4، والقرطبي، 1964 :162/14)، إذ قد كان (ρ) تأذى ببعض الزوجات: حيث سألنه شيئا من عرض الدنيا أو زيادة في النفقة، وقيل: أذينه بغيرة بعضهن من بعض، مهما كان الحال: القارىء لهذه الآيات يرى من الوهلة الأولى العتاب الشديد لزوجات النبي(ρ) لكن إذا نظرنا إليها بعمق وروية نجد فيها أساليب لينة ورحيمة معهنّ؛ وذلك مراعاة لكونهن نسوة، ويخرج القرآن الكريم من هذا النطاق إلى نطاق ملائم يراعي فيه قلوب النسوة، كذلك يراعي فيه حالاتهنَّ النفسية والجسمية.

المعنى العام للآيات هو: أنّ هذا أمر من الله لرسوله، فالخطاب في البداية موجه للرسول (ρ) ((بأن يخير زوجاته أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على عنده من ضيق الحال، ولهنّ عند الله في ذلك الثواب الجزيل)) (ابن الكثير، : 401/6)، وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فيه ثلاث عبارات تراعي فيها الله ـ سبحانه ـ أنوثة المرأة: والمعنى: إن كنتنّ تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها، وقبل البدأ بـ (تعالين) نرجع إلى القبل قليلا وهو قوله تعالى [إن كنتن] فنلحظ أنّ الله ـ تعالى ـ حين يعرض على الرسول(ρ) أن يخيّر زوجاته بين الأمرين، أي: زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم (إن) الدالة على الشك، ولا يستخدم سبحانه (إذا) الدالة على التحقيق وفي هذا: ((إشارة إلى عدم المبالغة في اتهامهن، فالأمر لا يعدو أن يكون خواطر جالت في أذهان بعض زوجاته)) (الشعراوي، 1997: 12006/19)، فضلا عن ذلك: بعد هذا العرض تأتي عبارة (فتعالين)، أي: أقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين (ينظر: أبو سعود، :100/7)، فعندهن الاختيار، وليس في الخطاب شدة وإنما ليونة الاختيار قد غلبت شدة الموقف، و(تعالى) في اللغة جاء من العلو وهي دال على السمو والارتفاع (ينظر: ابن فارس، 1979، (علو): 112/4)؛ لذلك فسّر بعض المفسرين عبارة: "تعالين" التي تكون بمعنى "أقبلن"، بـ: ارتفعن، وهو من العلو، أي: ارتفعن عن مناهج البشر والأرض وارتقين إلى مناهج خالق البشر (اينظر: الشعراوي،1997 : 12004/19)، فهذا دعوة المجد والعلو في الشأن بدلا عن أن يكون الخطاب خطاب العتاب الشديد جاء الخطاب خطاب النصح والإرشاد.

ثم يأتي قوله تعالى [فأمتعكنّ وأسرحكن سراحا جميلا]، المتاع في اللغة أي: المنفعة أو ما يتمتع به الإنسان (ينظر: الجوهري، 1987، (متع): 1282/3) وفي هذه أيضا الرعاية الجميلة لنفسية المرأة لفظا وعملا، بما كان معنى المتاع في اللغة كان المنفعة، وفي الآية: ما يعطيه الرجل للمرأة التي طلقها زيادة على الحقوق المقررة شرعا (للتفصيل فيه ينظر: القرطبي، 1964: 200/3، والطنطاوي، 1998: 201/19)، و(السراح) في قوله تعالى: [وأسرحكن سراحا جميلا] أي: الطلاق (ينظر: الجوهري، 1987، (سرح): 374/1) و(سراحا جميلا) أي: الطلاق دون غضب ولا كراهية ودون مشاحنات، ويراعى فيه اجتناب تكليف الزوجة ما يشق عليها، نلاحظ أن قد روعي حتى في الطلاق استخدام الألفاظ المريحة والجميلة على النفس، فضلا عن أننا نجد أنّ لفظة (الجمال) تأتي في القرآن الكريم مع الأمور الصعبة التي تنماز بالشدة وضيق في النفس، مثل قوله ـ سبحانه ـ [فصبر جميل] [يوسف:83]، فالصبر يكون جميلا حين لا يصاحبه ضجر أو شكوى، والرسول (ρ) يعرض على زوجاته التسريح الجميل الذي لا مشاحنة فيه ولاخصومة عند اختيار إحداهن أحد الاختيارين داعية زوجها لأن يطلبها إن أراد ذلك (ينظر: ابن عاشور، 1984 :316/21، الشعراوي، 1997: 19/ 12005).

بعد هذا العرض اللين المراعي لهنَّ يأتي قول الله ـ جلّ جلاله ـ ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أنّ الله أعدّ للمحسنات بسبب إيمانهن وإحسانهن أجرا عظيما، وبهذا التأديب الحكيم والإرشاد القويم أمرَ الله ـ تعالى ـ رسوله (ρ) أن يؤدب نساءه وأن يرشدهنّ إلى ما فيه سعادتهنّ وأن يترك لهنّ حرية الإختيار (ينظر: الطنطاوي، 1998 :202/11)، وزوجات النبي **(رضي الله عنهن)** كنّ من المحسنات؛ لأنهنّ اخترن الثانية وبالمقابل يأخذن الأجر العظيم الذي قال فيه الرازي (ت 606 هـ): ((العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق، حتى لو كان زائدا في الطول يقال له: طويل، ولو كان زائدا في العرض يقال له: عريض، وكذلك العميق، فإذا وجدت الثلاثة قيل: عظيم)) (الرازي، 1420هـ: 166/25)، فتحولت الآية من مظاهرها الشديدة في البداية إلى البشارات للمحسنات بأجر لا يوصفه إلا كلمة (العظيم).

بعد هذه الوتيرة الهادئة الجميلة، يرتفع نسق السياق إلى مرحلة بالإمكان تسميتها بمرحلة التحذيرات الشديدة، والعجب هو أن قد روعي فيها حال المخاطبات، ولم تتناف مع مراعاة القرآن الكريم لحال نساء الرسول؛ ونرى أنّهنّ اخترن الله ورسوله والدار الآخرة كأنهنّ ارتفعن إلى مستوى الخطاب المباشر من الله تعالى، أو كأنهنّ حققن المراد من الأمر السابق (فتعالين)، فأتى قول الله تعالى: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فالله ـ تعالى ـ يهيئهن للتحذيرات الآتية وذلك بإضافتهن إلى النبي (ρ) [يانساء النبي] وهذا أنسب لهنّ؛ إذ إنّ هذا التنسيب يكون راحة نفسية كبيرة لهنّ، فضلا عما سبق أنّ هذا ((تلوين للخطاب وتوجيه له إليهنّ لإظهار الاعتناء بنصحهن)) (أبو سعود، : 101/7، وينظر: الشعراوي، 1997: 12008/19)، لكنّ هذه الإضافة لا تنقذوهنّ من عذاب الله إن أتين بفاحشة ظاهرة، فأصبح الأمر مبانا لهن ولمكانتهن، ثم تأتي مضاعفة العذاب مقابل الأوزار والفواحش الظاهرة، ليزدن حذرهن؛ لأنهنّ قدوة للأخريات، ولكن في هذه الحالة الشديدة والحذر الثقيل أيضا نجد الرعاية الخاصة بالنسوة وذلك بدءا من قوله ـ سبحانه ـ [من يأتي منكن بفاحشة] هذه الجملة الشرطية، والجملة الشرطية لا تقتضي وقوع الشرط (ينظر: السعدي، : 663، والطنطاوي، 1998: 202/11) نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر: 65] ومعلوم أنّ رسول الله (ρ) ليس مظنة الوقوع في الشرك، كذلك صيغة (يُضاعف) مبني لما لم يسم فاعله وهذا يدل على رحمة الله ولطفه في العبارة، فالله ـ سبحانه ـ يحب خلقه جميعهم ويتحبب ويتودد إليهم ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن، فلم يسند فعل مضاعفة العذاب إلى نفسه وذلك مراعاة لإظهار نفسه في مقام العذاب مع نسوة الرسول (ينظر: الشعراوي، 1997: 12014/19).

الآن تهدأ الوتيرة إذ بعدما أتى الوعيد أعقبه الله ـ تعالى ـ بالوعد: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ أي: فمَن يلازم طاعته تعالى ويحرص على مرضات الرسول (ρ) يأخذ أجرها مرتين كما كان العذاب مضاعفا، فأصبحت الوتيرة هادئة، والجميل هنا أنّ الله ـ سبحانه ـ قد أسند فعل إتيان الأجر إلى نفسه (نؤتها) وهذا تشريف لإيتائهن الأجر؛ لأنه المأمول بهنّ، كذلك عودة الضمير (ها) في (أجرها) إلى (من) باعتبار أنها صادقة على واحدة من نساء النبي، وهذه إشارة إلى تعظيم ذلك الأجر ومناسبته لمقامها وتشريفها بأنها تستحقه ذلك الأجر (ينظر: ابن عاشور، 1984: 5/22).

ولا تقف الآية عند هذا الحد بل تصف رزقهن بالكريم، والسؤال هو: إنّما الكريم هو الرازق ـ سبحانه ـ فلماذا وصف الرزق بأنه كريم؟ والجواب هو: إنّ هذا بمثابة الفرق بين الرزق في الدنيا والرزق في الآخرة؛ إذ إنّ الرزق في الدنيا له أسباب، فالذي يجر لك الرزق على يديه هو الذي يوصف بالكرم، أما في الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب، فناسب أن يوصف نفسه بأنه كريم (ينظر: الشعراوي، 1997: 19/ 12017)، ثم في النهاية يميز الخطاب القرآني نساء النبي عن النسوة كافة، ولهذا يرشدهن الله ـ تعالى ـ إلى قطع وسائل المحرمة، بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾ [الأحزاب 32-34] أعيد خطابهن من جانب ربهنّ وأعيد نداؤهن للاهتمام بهذا الخبر اهتماما يخصه؛ لأنّ هذه الآيات المباركة وما قبلها بمثابة منهاج تسلكه النسوة وهذا المنهاج يحوي: أن تريد المرأة الله والدار الآخرة، والبعد عن الفاحشة، والقنوت، وعدم الخضوع بالقول، والقرار في البيوت وعدم الخروج إلّا للحاجة، وإقامة الصلاة، ثم طاعة الله ورسوله عموما (ينظر:أبو عبدالرحمن، 2011: 68)، هذا التأسيس المنهجي لحياة النسوة من خلالهن بحد ذاته تفضيل وتكريم لهنّ، صحيح في ظاهر الأمر أنّ هناك أمور هنّ مكلفات بها، لكن ندائهنّ بنساء النبي (ρ) ونفي المشابهة يرفع عليهنّ مشقة هذا التكلف، ونفي المشابهة هنا يراد به نفي المساواة مُكَنًّى به عن الأفضلية على غيرهن، فالمعنى: أنتن أفضل النساء، وظاهر السياق تفضيل لجملتهن على نساء هذه الأمة، وسبب ذلك أنهنّ اتصلن بالنبي (ρ) اتصالا أقرب من كل اتصال، وصرن أنيساته ملازمات شؤونه فيختصن باطلاع ما لم يطلع عليه غيرهن من أحواله وخُلُقه في المنشط والمكره، ويتخلقن بخلقه أكثر مما يقتبس منه غيرهن (ينظر: ابن عاشور، 1984: 7/22).

وجانب آخر من جوانب مراعاة الجانب النفسي للمرأة في هذه الآيات هو أنّ الله ـ جلّ شأنه ـ ألحق هذه الأوامر والنواهي ببشارة لهنّ بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: ((إنّما يريد الله ـ تعالى ـ بتلك الأوامر التي أمركن بها، وبتلك النواهي التي نهاكن عنها، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا)) (طنطاوي، 1998: 208/11)، فالنصح والأوامر والإرشادات التي تلحقها بشارات أو أسباب

إتيانها تتحول إلى سرور وصدر واسع للتقبل بها؛ لأنّ المخاطَب يشعر بأهمية نفسها من لدن المخاطِب.

المبحث الثاني: خطاب الرجال

توطئة:

مما لا يحمل الشك هو أنّ المرأة والرجل يختلفان في الكفاية والقدرة على جملة الأعمال الإنسانية، وهذا الاختلاف اختلاف تكاملي بينهما ولا ينحصر في أمّة دون أخرى أو في عصر وغيره، والله ـ جلّ شأنه ـ قد فرّق في كتابه الكريم بين الخطاب الموجه لهما تفريقا ملائما لكلا الجنسين مؤسسا على حالتهما الإنسانية وقدراتهما، وبطبيعة الحال المهام الأساس للرجل مختلف عن مهام المرأة؛ إذ في الغالب الأعمال الشاقة والمتعبة يفعلها الرجل وبالمقابل هناك أعمال تليق بالمرأة وقواها الجسدية والنفسية، وعلى هذا البناء أتى الخطاب القرآني منسقا مع حالة الرجل التي تتصف بالقدرة على التحمل والصبر وصيرورة الواقع تحت مشقات الحياة، إذ هناك نوع من الشدة المستنبطة من الخطاب القرآني المباشر تجاه الرجل، وفيما يأتي آيات مختارة ضمت الخطاب المباشر للرجل وفيها التأمل المذكور من خلال تفسيرها وتحليلها.

. الرسول (ρ):

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة: 119. 120].

يخاطب الله ـ جلّ جلاله ـ الرسول (ρ) على أنّه ـ جلّ شأنه ـ أرسله بالدين الحق المؤيد بالحجج والمعجزات، ليبلّغه للناس مع تبشير المؤمنين بخيري الدنيا والآخرة، وتخويف المعاندين بما ينتظرهم من عذاب الله (ينظر: نخبة من العلماء: 2009: 18)، واستخدام الله ـ تعالى ـ لنون العظمة دالٌّ على إتمام الفعل أو الحدث على أكمل وجه، دون عيب أو نقصان، وهذا بحد ذاته يحتاج إلى جهد ومشقة من جانب الرسول (ρ)؛ لأنّ عليه (ρ) أن يبشر وينذر المتمثلين في كلمتين لكن إحداثهما يحتاج إلى جهد جبار، يقول الشعراوي في هذا الصدد: ((ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت، فكأن العظمة في الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس الدولة فيشترك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب، تشترك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار، والله ـ تبارك وتعالى ـ عنده الكمال المطلق كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا تحدث الله ـ ﷻ ـ عن فعل يحتاج إلى كمال [القدرة] من الله تبارك وتعالى يقول "إنّا" : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: 9])) (الشعراوي: 1997: 558/1)

فضلا عمّا سبق أنّ صيغتي (بشير و نذير) مأخوذتان من (بشّر) المضاعف و(أنذر) المزيد، أي: أنّ قوله ـ سبحانه ـ: (بشيرا ونذيرا) حالان وهما على وزن (فعيل) بمعنى فاعل، مأخوذان من "بشّر" المضاعف و"أنذر" المزيد فمجيئهما من الرباعي على خلاف القياس (ينظر: ابن عاشور: 1984: 558/1) وهذا دال على عمل أكثر وجهد مضاعف، وذلك من خلال المفهوم الذي مفاده هو: كل زيادة في المبنى دالّ على الزيادة في المعنى.

تفصيلا لما ذُكر: أنّ هناك آراء حول أنّ قوله تعالى: "بشيرا ونذيرا" تسلية للرسول (ρ) حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون، والمعنى: ((لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذا ببقاء الكافرين على كفرهم، ولست مسئولا عن عدم اهتدائهم فَإِنَّما عليكَ البلاغُ وعلينا الحِساب)) (الطنطاوي، 1998: 262/1)، لكن رحمة الرسول (ρ) لاستقامة قومه ووضعهم على الصراط المستقيم وإنقاذهم من نار جهنم تجعل منه (ρ) أن لا يريح نفسه، بل يجتهد مرارا وتكرارا في سبيل هدايتهم، لم لا؟ في حال وصفه الله ـ جلّ وعلا ـ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء: 107]، إذن: في الآية تسلية لنفس الرسول (ρ) من جانب و تأسفه (ρ) على وصف الكفار بأصحاب الجحيم، كما ألمح إلى ذلك الزمخشري (ت 538هـ) ((وهذه تسلية لرسول الله (ρ) وتسرية عنه؛ لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر، ولا نسألك عَنْ أَصحابِ الْجَحِيمِ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغت وبلغت جهدك في دعوتهم)) (الزمخشري، 1407هـ: 182/1)؛ إذ إنّ وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم، إشعار وإشارة على أنهم قد طبع على قلوبهم، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر (ينظر: الطنطاوي، 1998: 262/1)، و في قوله تعالى [ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم] شدة ونهي قاسيين عليه (ρ)؛ لأنها نهي عن سؤال عمن عصى وكفر من الأحياء، إذ قد يتغير حاله فينتقل من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، أو أنّه نهي عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه (ينظر: القرطبي، 1964: 93/2)، وفي كلا الحالتين يتأسف النبي (ρ) على هذا الحال الذي هم عليه، والنهي عليه شديد وهو من الله ـ تعالى ـ ولابدّ الإطاعة.

بعد هذا النهي يأتي خبر يصل فيه اليأس عند الرسول (ρ) إلى حده الأقصى ويحتاج إلى موقف رجولي كما هو(ρ) أهل له وذلك قوله ـ جلّ شأنه ـ ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا

النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...﴾ أي: أنّ غرضهم لايكون بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا، بل لو أتيتهم يا محمد (ρ) بكل ما يسألون لم يرضوا عنك، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم (ينظر: القرطبي، 1964: 93/2. و أبو حيان، 1420هـ: 590/1)، ((والنفي بلن مبالغة في التأييس؛ لأنها لنفي المستقبل وتأبيد)) (ابن عاشور، 1984: 693/1) وهذا لا شك ثقيل على قلبه (ρ) المبارك، لكن عليه تقبل الأمر وهو من عند الله ـ جلّ وعلا ـ اختصارا: هاتان الآيتان تمثلان الشدة والثقل الذين قد تحمّلهما النبي (ρ) في العمل الجاهد في سبيل هداية قومه ومن ثم يأسه من بعضهم، فخطاب الله ـ تعالى ـ معه يحتاج إلى مخاطَب رجولي مثل رسولنا الأكرم، أي: مع أنّ في الآيتين الشدة و واليأس والثقل لكن تخبرنا الآيتان أيضا: أنّ المخاطب يتحمل ذلك إذ إنّه رجل، بل خير رجل على وجه الأرض.

ـ زكريا (عليه السلام):

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)﴾ [آل عمران: 38-40]

هناك تشابه لفظي وسياقي بين هذه الآيات المباركة والآيات الي ذُكرت فيها مريم **(عليها السلام)** وذلك على النحو الآتي:

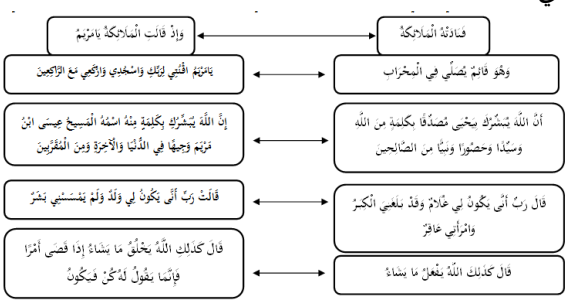

من خلال النظر إلى المخطط يبدو أنّ هناك تشابه لفظي ومعنوي بين الموضوعين: بين حال زكريا **(عليه السلام)** ومريم **(عليها السلام)**، وعلى هذا الأساس هناك تشابه في الخطاب الموجه لهما غير أنّه لا يخفى على العيان أنّ حالة سيدنا زكريا **(عليه السلام)** تسترعي انتباها خاصا وهو أنّه قد دعا ربّه في حالة الضعف والشيخوخة ليرزقه ذرية طيبة، أي: الشدة الكثيرة التي تُطلب من الرجال غير مطلوبة منه؛ وذلك بالنظر إلى خطاب القرآني له مقارنة بغيره من الخطابات القرآنية مع الرجال، مع ذلك هناك اختلاف دقيق بين هذا الخطاب والخطاب الخاص بمريم **(عليها السلام)**، أي: أنّه مهما ضعف الرجل واحتاج المؤانسة والألفة لا يصل الخطاب القرآني معه إلى الرقة والرعاية الموجودتين في خطابه للمرأة. وهذا إذا نظرنا إلى الموضوع نظرة سطحية غير كاشفة، فضلا عن إذا نظرنا إليه نظرة التدبر: نرى أنّ هناك خطابين مختلفين ومن خلالهما يظهر الاختلاف الواضح بين خطاب الله ـ تعالى ـ للرجل وللمرأة، وتحدث الباحث بالتفصيل عما دار في الآيات الخاصة بمريم **(عليها السلام)** لكن هنا لابد من إعادة ذكر ـ مختصرا ـ ما سبق بيانه وذلك في سبيل بيان الفرق وتبيانه.

تبدأ آيات زكريا **(عليه السلام)** بالدعاء: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ والمعنى: في ذلك المكان الطاهر الذي كان يلتقي فيه زكريا بمريم **(عليهما السلام)** ويرى من شأنها ما يرى من فضائل وغرائب، تحركت في نفس زكريا عاطفة الأبوة، وهو الشيخ الكبير الذي وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا، وبلغ من الكبر عتيّا، فدعا الله ـ تعالى ـ بقلب سليم، وبنفس صافية وبجوارح خاشعة، أن يرزقه الذرية الصالحة، وقد تحدثَ القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: هب لي من عندك لا من عندي؛ لأنّ الأسباب عندي أصبحت مستبعدة. (ينظر: القرطبي، 1964: 72/4، والطنطاوي،1998: 93/2) هذا: وقد حكى لنا القرآن في سورة مريم دعاء زكريا بصورة أكثر تفصيلا فقال: ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم: 1-6] فهذا دعاء زكريا **(عليه السلام)** ذلك الذي لا نجده عند مريم **(عليها السلام)**؛ والسبب واضح أنّه كان يحب أن يكون له ولد وكان بحاجة إليه لكن أن تلد مريم ولدا فكان هذا أمرا مستبعدا تماما عقليا وعمليا فكيف بدعائها له.

ثم يأتي قوله تعالى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآية صريحة في مناداة الملائكة له إذ خاطَبتهُ الْملَائكة شِفاها خطَابا أَسمعَته، وهو قَائمٌ يصلّي فِي محرابِ عبادته، ومحلّ خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته (ينظر: ابن كثير، 1999: 37/2)، ما يُلحظ في هذا النداء هو نقل خبر نداء الملائكة له على عكس ما أتى في نداء مريم**(عليها السلام)** إذ أتى بعد مجموعة من الألفاظ الأنس والإعتناء نداء باسمها (يامريم): ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران:42-43] وهذا يثبت الفرق بين مقامين: صحيح أن زكريا وزوجته كانا

يحتاجان الرحمة والمؤانسة لكن مع ذلك لم تصل رقة الخطاب إلى مناداته باسمه مثلما هي موجودة في آيات مريم حيث نودي ثلاث مرات متتالية؛ وكلها لغرض تهيئة مريم نفسيا كما ذكرناه في مقامه. ثم يأتي قوله تعالى [أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى] نلاحظ أن الله ـ سبحانه ـ أخبره ببشارة كما هي موجودة عند مريم **(عليها السلام)** [إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ] وكلمة البشارة تم بيانها سابقا، والفرق بين البشارتين: هو أنّ الله بشّر زكريا بيحيى **(عليهما السلام)** دون إسناده له لفظيا، لكن عند مريم ولشدة الحاجة في حالتها الشديدة القاسية على قلبها وأسباب أخرى معنوية قال سبحانه: [إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ] وهذا تأنيسا لحالتها النفسية إذ كل امرأة تستأنس بالأمومة وإسناد ولدها لها اسما وجسما، وصحيح أنّ حالة زكريا تستدعي الحنان والرأفة لكن يبقى الرجل رجلا لذلك الله ـ تعالى ـ يؤنسه بما يناسب الرجال وذلك بذكر صفات يحيى **(عليه السلام)** [مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ] وصف الله يحيى بالسيد؛ لتحصيله الرئاسة الدينية فيه من صباه، فنشأ محترما معززا من جميع قومه، قال تعالى: ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)﴾ [مريم: 12، 13] هذه البشارات تنسجم مع رغبة الرجال من صفات أولادهم في وقت كانت البشارات العاطفية تطفيء نار قلب مريم **(عليها السلام)**، فضلا عن أنَّ الحصور: فعول بمعنى: مفعول مثل رسول أي: حصور عن قربان النساء، ووسطت هذه الصفة بين صفات الكمال تأنيسا لزكريا وتخفيفا من وحشته لانقطاع نسله بعد يحيى (ينظر:البقاعي: 366/4، وابن عاشور، 1984: 241/3).

ومن باب الإشارة: الفرق بين الغلام في قول سيدنا زكريا: تعجبا ودهشة من تحقيق حلمه واستجابة الله دعاءه وفرحة عارمة [قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ..] و(الولد) في قول مريم **(عليها السلام)**: تحسرًا وخوفا مما يحصل [قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ..]، هو أنّ الغلام مناسب لحال زكريا؛ لأنّ الله ـ تعالى ـ بشّره بـ(يحيى) ويحيى غلام، وبالنسبة للولد مع مريم فهو المناسب أيضا ذلك؛ لأنّ الله بشّرها بكلمة منه اسمه المسيح، والكلمة التي بشّرها بها أعم من الغلام الذي بُشّر به زكريا، فهي تصح لكل ما أراد الله أن يكون، ومن ثمّ الولد أعم من الغلام، فالولد للذكر والأنثى والفرد والجمع، لذا عندما بشرها بالكلمة وهي عامة سألت بما هو أعم من الغلام وهو الولد فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص (ينظر: السامرائي،2008: 30)، ويمكن القول أيضا: أنّ زكريا **(عليه السلام)** كان قد سأل الله ذريّة طيبة ونيته كان غلاما لا لشيء من أمور: كقرة العين، والذكر، والعز، وغيرها، إنما أراد الولد ليكون وارثا له في حمل منهج الله ـ تعالى ـ في الأرض (ينظر: الشعراوي،1997: 1444/3)، فاستجاب الله دعائه بإعطائه غلاما، لذلك هو من فرحه وتعجبه عبر بالغلام لأن الشيء كان قاطعا ومؤكدا، كما ذكره ابن عاشور: ((وقوله: أنّى يكون لي غلام استفهام مراد منه التعجب، قصد منه تعرف إمكان الولد؛ لأنه لما سأل الولد فقد تهيأ لحصول ذلك فلا يكون قوله أنى يكون لي غلام إلا تطلبا لمعرفة كيفية ذلك على وجه يحقق له البشارة، وليس من الشك في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم: [ليطمئن قلبي] [البقرة: 260] ، فأجيب بأن الممكنات داخلة تحت قدرة الله ـ تعالى ـ وإن عز وقوعها في العادة)) (ابن عاشور،1984: 241/3).

لكن مريم **(عليها السلام)** من شدة الموقف والقلق الذي كان يعتريه لم تكن تحدد جنس المولود تحديدا دقيقا، مع أنها ذُكرت لها بابنها عيسى وهو ابن مريم، لكن عبر عن دهشتها بالولد الذي هو أعم من الغلام؛ ذلك لأنها لم تكن يهمها جنس المولود وكيفيته بقدر همها على حصول هذا الأمر الرهيب لها وما تقوله للناس بعده.

بعدما استيقن زكريا من تحقيق دعائه يُستشعر منه نزعة شاب قوي وهو يريد من الله أن يكلفه بشيء شاكرا له وللنعمة التي أنعم عليه وليتلقّى تلك النعمةَ الجليلة من حين حصولها بالشكر قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)﴾ [آل عمران:41] أي: أن لاتقدر على تكليمهم (ثلاثة أَيَّامٍ) متوالية مع القدرة على الذكر والتسبيح، وإنما جُعلت آيتُه ذلك لتخليص المدة لذكر الله ـ تعالى ـ وشكره قضاءً لحق النعمة كأنه قيل: آية حصولِ المطلوب ووصول النعمة أن تحبِسَ لسانك إلّا عن شكرها وأحسنُ الجواب ما اشتق من السؤال، [إِلاَّ رَمْزًا] أي: إشارةً بيد أو رأس أو نحوِهم (ينظر:أبو سعود: 34/2)، ثم تأتيه المتطلبات متوالية [وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ] وهذا يليق بالرجال والشكر لله ـ تعالى ـ لكن مريم **(عليها السلام)** لم يطالبها الله ـ سبحانه ـ بأعمال بل استرسل ذكر صفات ابنها عيسى **(عليه السلام)** مؤانسة لها وتشويقا وإراحة لنفسها المتعبة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا

تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)﴾ **[آل عمران: 45-49].**

. الرسول (ρ):

قال تعالى: ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤)﴾ [النساء: 84].

الآية الكريمة أوجبت على الرسول (ρ) القتال، وأوجبت عليه تبليغ المؤمنين الأمر بالقتال وتحريضهم عليه، وهي تبدأ بكلمة قوية ومؤثرة دلاليا وذات تكلفة ثقيلة، وهي (القتال)، إذ إنّ القتل يدل على إذلال وإماتة، ((ويُقال قتلَهُ: إذا أماته بضرب أو حجر أو سم أو علة والمنية قاتلة)) (الأزهري، 2001، (قتل): 62/9، وينظر: ابن فارس، 1979، (قتل): 56/5). و(التكليف) من كلّف تكليفا، وهو: أمرٌ بما يشق على مأمور، والشخص الذي يحمل الشيء تكلفة حينما لا تطقه إلا تكلفا (ينظر: الجوهري،1987، (كلف): 1424/4)، وحرّض من التحريض، والتحريض على القتال: الحثّ والإحماء عليه (ينظر: الجوهري، 1987، (حرض):1070/3)، وهناك معنى آخر: وهو المشرف على الهلاك، قال ابن فارس: ((وقوله تعالى: ﴿...حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾**[الأنفال: 65]** لأنهم إذا خالفوه فقد أهلكوا)) (ابن فارس،1979، (هلك): 41/2).

عموم الآية في سياقها القرآني: فيها أمر من الله . جلّ شأنه . وتكلّف شديد على الرسول (ρ)، وبعدما ذكّر الله . تعالى . قلة رغبة المنافقين في الجهاد أمام قريش والمشركين، إذ كانوا ممن يسعون بشدة في تثبيط المسلمين عن القتال، فأمَرَ الله . تعالى . النبي (ρ) بالقتال في سبيله، وإن لم يساعده أحد فلم يجز الله له التخلف عن الجهاد البتة (ينظر: الرازي، 1420 هـ: 157/10، والبيضاوي، 87/2)، وقال صاحب الكشاف: ((أي: لا نكلّف نحن إلا نفسك وحدها، وحرّض المؤمنين، وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب، لا التعنيف بهم عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا وهم قريش)) (الزمخشري، 1407هـ: 542/1).

المعنى الشامل للآية يظهر أنها تسهل الأمر على الرسول وذلك بوجود قوله تعالى: [لاتكلف إلّا نفسك]، لكن التدقيق في معناها يظهر ازدياد الأمر عليه (ρ)؛ إذ جعل التكلف أصعب وكان أعلى درجة من التكلف الجماعي؛ حيث فيه إيماءات على حمل هذا الثقل بوحده (ρ) لكن ما هو مهم هو أن لا ننسى أنّ هذه التكاليف الصعبة لم تأت على شخص غير قادر، بل نزلت على الرسول (ρ) الذي كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال؛ لأنّ الله . تعالى . ماكان يأمره (ρ) بهذه التكاليف الصعبة والشاقة إلّا وهو موصوف بهذه الصفات (ينظر: الرازي، 1420هـ: 157/10).

والآية تنتهي برزمة من صفات الله القوية . عزّ وجلّ . وهذا متداخل مع سياق الآية وهي التي تطلب ذلك، والموطن الشاهد هو أنّ الله . تعالى . قد استخدم مع الرسول (ρ) . إذ هو رجل قوي . هذه الصفات [والله أشدّ بأسا وأشد تنكيلا]، والجميل في ذلك هذه بمثابة بشارة لكن بشارة تليق بالرجال؛ إذ إنّ ((عسى بالنسبة لله . جلّ شأنه . رداء محقق لأنّه إطماع من الله . عزّ وجلّ ، والإطماع منه واجب تحققه)) (الشعراوي، 1997: 2490/4).

إذن: قوله . جلّ جلاله . ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ بشارة للمؤمنين والرسول (ρ) ووعد من الله . تعالى . بنحس عاقبة الكفار وسوء عاقبتهم (الطنطاوي، 1998: 241/3)، فالبشارة أتت من كلمتي "بأسا" و"تنكيلا" فضلا عن إعادة "أشدّ" من قبلهما، وهنا يريد الله . تعالى . بها القوة والشدة في الحرب؛ لأنّه سبحانه ((لا ينصر المؤمنين والرسول (ρ) مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين؛ لأنّ النصر لو جاء بسبب غيبي من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت، ولكن الحق يريد أن يظهر القلة المؤمنة، هي التي غلبت، والمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب)) (الشعراوي، 1997: 2487/4)، وهذا إذا قارنّاها بالآيات التي تحدثت عن مريم **(عليها السلام)** فنجد اختلافا كثيرا حينما قال: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)﴾ [آل عمران: 47]، نعم وهذا مؤكد لله . تعالى . وليس كمثله شيء، لكن في هذه الآية قد كلّف الرسول (ρ) والمؤمنين الجهد والمشقة والثقل، وحتى بشارتهم أتت من كلمات متصفة بشدة وشديدة في نفسها.

. الرسول (ρ):

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ [المائدة: 67].

في هذه الآية المباركة قد نادى الله . تعالى . النبي (ρ) بأشرف الصفات الإنسانية، إذ تبدأ الآية بخطاب النبي "محمد" (ρ) وناداه بالمشخص للوصف (يأيها الرسول) وهذا دليل بارز على علو مكانته واصطفائه خاتما لرسالاته في الأرض؛ لأنّ الله . جلّ جلاله . ذَكر الرُّسل **(عليهم السلام)** في خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَاآَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ **[البقرة: 33]** و ﴿يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)﴾ **[القصص: 30]**، أو ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ **[المائدة: 116]** و ﴿يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾ **[هود: 48]** لكنّ رسول الله (ρ) لم يناد باسمه قط في القرآن الكريم، بل

ناداه بـ (يأيها الرسول) أو (يأيها النبي) (ينظر: النعماني، 1998: 436/7، والشعراوي، 1997: 3285/6).

وما نريد أن نسلط الضوء عليه هو: أنّ ما بعد هذا النداء العظيم الثقيل القوي اللائق بلفظة المنادى كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة 286] و ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ **[المزمل: 5]** يأتي الطلب مباشرة وهو [بلّغ ما أُنزل إليك من ربك...]، قوة الأمر تظهر من خلال كلمة (بلّغ) إذ هي في اللغة تأتي بمعان متعددة، منها: إنتهاء الشيء والوصول إليه، كذلك الكفاية، جاء في لسان العرب: ((البلاغ: ما يُتبَلّغ به ويُتوصّل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بلغَك، والبلاغ: الكفاية)) (ابن منظور (بلغ)، 1414هـ: 420/8)، فنداء النبي (ρ) بعنوان الرسالة كما قلنا: تشريفا له، وفي الوقت ذاته إيذانا بأنها موجبات الإتيان بما أُمر به من متبلغ ما أوحي إليك، أي: جميع ما أنزل إليك من الأحكام والأوامر والنواهي والآداب والأخبار دون أن تخش أحدًا إلّا الله (ينظر: أبو سعود: 60/3، والطنطاوي،1998 :223/4)، وداوم على ذلك؛ لأنّ الأمر بالتبليغ يستعمل في طلب الدوام (ينظر: ابن عاشور،1984: 6258).

الملفت في الآية أيضا هو لماذا يقول الحق ـ تعالى ـ لرسوله (ρ) (بلّغ) وهو عالم بأنّ مهمة الرسول (ρ) هي البلاغ؟ كما قال عزّ وجلّ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ **[المائدة: 99]**، يجيب عن هذا التساؤل الشعراوي رحمه الله حين قال: ((لقد أراد الله ـ سبحانه ـ بذلك إخبار الناس أنّه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ إلتزاما بأمر الله، فهو لا يقول من عنده .... حتى إذا بلّغ الرسول (ρ) حُكما من الأحكام فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنّه قادم من الله، وسبحانه يعلم أنّ رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر)) (الشعراوي،1997: 3266/6)، فهذا الإبلاغ الثقيل لم يأت إلا أنّ الله ـ ﷻ ـ يعلم بقدرة الرسول (ρ) على إبلاغه رغم ثقله والمشقة التي تترتب بعده، ولا يكتفي الأمر من هنا بل الهَمُّ الأكبر يأتي في قوله ـ عزّ وجلّ ـ:[وإن لم تفعل فما بلغتَ رسالته]، هذه بمثابة صاعقة منبهة؛ لأنّه (ρ) إذا لم يتمثل أمر الله في تبليغ الرسالة كلها أو كتم بعضها كأنّه لم يُبعث رسولا، كان الأمر شنيعا، وقيل: إن لم تبلغ منها أدنى شيء وإن كانت كلمة واحدة فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها، كما أنّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها (ينظر: الزمخشري،1407هـ: 659/1، وأبو حيان،1420هـ: 322/4، وابن عاشور،1984: 262/6).

تنتهي الآية بقوله تعالى: [والله يعصمك من الناس ....]، العصمة تعني: الإمساك والمنع والملازمة والعصمة من الله أي: أن يعصم الله عبده من سوء يقع فيه واستعصم العبد بالله أي: إلتجأ إليه (ينظر: ابن فارس (عصم)، :331/4)، والعصمة في الآية: عصمة نفسه وجسمه (ρ) من القتل أو الهلاك، كذلك عصمة دعوته، وهذا لا ينافي ما تعرض له الرسول (ρ) من بأساء وضراء وأذى بدني، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى سالت دماؤه، وشُجَّ وجهه وكسرت رباعيته في غزوة أحد (ينظر: الطنطاوي،1998: 225/4)، والسؤال هو كيف تجتمع العصمة مع ما حصل له (ρ)؟ يقول الرازي: ((والجواب من وجهين: [أولهما]: أنّ المراد من يعصمه من القتل، وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل لكل ما دون النفس من أنواع البلاء، فما أشدَّ تكليف الأنبياء **(عليهم الصلاة والسلام)!** وثانيهما أنها نزلت بعد يوم أحد)) (الرازي، 1420: 401/12)، بناء على ما تقدّم: تبين مدى الصعوبة المترتبة في إنزال الوحي على الرسول (ρ) قولا وفعلا، ومخاطبة الرسول (ρ) قد أجمعت المشقات والأثقال المحتملة حصولها له.

. الرسول (ρ):

قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾ [هود: 112]

الخطاب في هذه الآية الكريمة للنبي (ρ) ولغيره وفيه الأمر له وللمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، والاستقامة في اللغة هي: ضد الاعوجاج، وهي أيضا كون الخط بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض على جميع الأوضاع، كذلك أتت بمعنى المداومة والرشد والعدالة (ينظر: الجرجاني، 1983: 19، والفيروز آبادي، 2005، (رشد): 282، والكفوي: 467، 639)، ومعنى الآية فيه تكلف ومطالب كثيرة؛ إذ إنّ السين في (الاستقامة) سين السؤال أي: اطلب الإقامة على الدين من الله واسأل ذلك، والمطلوب هو: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ من جهة اليمين والشمال (ينظر: القرطبي، 1964: 107/9)، إذ إنّ كلمة الاستقامة كلمة جامعة شاملة في كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال، سواء كان مختصا به أو كان متعلقا بتبليغ الوحي وبيان الشرائع (ينظر: الرازي، 1420هـ: 406/18)، وبيّن الشعراوي رحمه الله دقة مسألة الاستقامة لغة وفي سياقها القرآني بقوله: ((والاستقامة معناها: عدم الميل أو الانحراف ولو قد شعرة وهو أمر يصعب تحقيقه؛ لأنّ الفاصل بين الضدين أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان، ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء، فأحيانا يصعد الظل على الضوء وأحيانا يصعد الضوء على الظل، وسنجد صعوبة في تحديد صعوبة الفاصل بين الظل والنور مهما دقت المقاييس)) (الشعراوي،1997: 6708/11).

وقد نقل بعض المفسرين قول ابن عباس (رضي الله عنه) على أنه ما نزلت على الرسول (ρ) في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشقّ عليه من هذه الآية؛ ولهذا قال (ρ): شيبتني هود

والواقعة وأخواتها (ينظر: الزمخشري،1407هـ: 433/2، والرازي،1420هـ: 406/18، والقرطبي،1964: 107/9)، ولولا أن قال الحق ـ سبحانه ـ في كتابه الكريم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] لَتعب المسلمون تماماً، وقد أنزل الحق ـ سبحانه ـ هذا القول بعد أن قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102]، إذن: الأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمرا ونهيا بحيث لا يميل إلى جهة دون جهة، لذلك كانت الاستقامة أمرا شاقا للغاية ولازالت، وهي تطلب اليقظة كاملة وعدم الغفلة (ينظر: الشعراوي،1997: 6710/11).

وهذا الأمر الصعب والدقيق من الله ـ تعالى ـ على الرسول (ρ) كان ثقيلا لحد مشاركته في تعجيل شيخوخته (ρ) لكن الله ـ تعالى ـ عالم برسوله وبحاله ويعلم أنه مهيء لهذا الأمر الصعب، وقوله تعالى [ومن تاب معك] هم المؤمنون، لأن الإيمان توبة من الشرك، وهذا إيذان بألّا ييأس الرسول (ρ) من وقوف صناديد قريش أمام دعوته (ρ)؛ لأنّ المشركين والقريش سيتساقطون يوما بعد يوم (ابن عاشور،1984: 176/12، والشعراوي،1997: 6710/11)، وتنتهي الآية بقوله ـ جلّ وعلا ـ [ولا تطغوا إنّه بما تعملون بصير]، الخطاب هنا موجه للمؤمنين، والطغيان أصله التعاظم والجرأة وقلة الاكتراث، والمراد منها في الآية الجرأة على مخالفة ما أُمروا به وقد شمل الطغيان أصول المفاسد، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودرء المفاسد، وورود وصف (البصير) في النهاية تحذير لمن أخفى الطغيان؛ لأنّ الله تعالى مطلّع على كل عمل يعمله المسلمون (ينظر: ابن عاشور،1984: 177/12).

. يحيى **(عليه السلام)**:

قال تعالى: **﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤)﴾ [مريم: 12-14].**

بعد أن ذكر الله ـ سبحانه ـ دعاء زكريا **(عليه السلام)** راجيا أن يهبه غلاما سريا بقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤)﴾ **[مريم: 3، 4]** وذكر أنّ الله ـ تعالى ـ استجاب طلبه حين قال ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ **[مريم: 7]**، أمّا الآيات المباركة التي بصددها البحث تبدأ بـ [يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا] فهذا مقول لقول محذوف، والآية الكريمة انتقلت بنا نقلة واسعة وطوت فترة طويلة من حياة يحيى **(عليه السلام)**، وقيل: الحذف هو (ووهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى) (ينظر: البغوي، 1420هـ: 227/3، وابن الجوزي، 1422هـ: 121/3، والشعراوي، 1997: 9042/15).وهذا الحذف بحد ذاته وهذا النوع من إخبار القرآن للأمة يسترعي الانتباه: إذ يدل على المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم، واختلف المفسرون في ترعرع يحيى **(عليه السلام)** أو عدمه حين جاءه هذا الخطاب الثقيل، فمنهم من قال: بعد أن ولد يحيى ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا: يا يحيى خذ الكتاب الذي هو التوراة بقوة (ينظر: الطنطاوي،1998: 20/9)، ومنهم مَن ذكر أنّه كان ابن سنتين أو ثلاث سنين (ينظر: القرطبي،1964: 87/11)، وذكر القرطبي قول ابن عباس **(رضي الله عنه)**: ((من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم الصبيا)) (القرطبي،1964: 87/11)، وهناك من المفسرين مَن يفسر هذه الآية بـ: ((فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده، وهو ما يزال في بطن أمه جنيناً، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً: [يايحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ] فقد بلغ مبلغ النّضْج، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة، إذن: المسألة مأخوذة مأخَذ الجدِّ، وهي حقيقة واقعة)) (الشعراوي، 1997: 9042/15)، ومنهم من لم يحدد بل اكتفى بـ: أنّ يحيى **(عليه السلام)** قد بلغ مبلغ الذي يجوز أن يخاطبه الله ـ جلّ جلاله ـ بذلك فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه (ينظر: الرازي، 1420هـ: 516/21).

فمهما كان الحال فإنّ الآية آية التكلف والجدية؛ لأنّ فيها كلمات دالة عليهما، ومنها: (الأخذ) وهي في اللغة تعني التناول، وأيضا حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجمعُهُ، وفي الآية مستعار للتفهم والتدبر، والقوة المراد بها: قوة معنوية وهي العزيمة والثبات (ينظر: الخليل، (أخذ): 298/4، وابن فارس، (أخذ): 68/1)، أي: آخذا ملابسا للثبات على الكتاب وهو التوارة، والعمل به وحمل الأمّة على اتباعه، ولأنّ الكتاب فيه أوامر ونواه يأمرك بالخير وينهاك عن الشر، والمنهج هو هذه القوة التي تحركك إلى الخير وأنت ساكن، وسكنك عن الشر وأنت متحرك (ينظر: ابن عاشور،1984 : 75/16، والشعراوي، 1997: 9044/15)، فهذا الأمر الثقيل المبان من خلال كلمتي (خذ) و(القوة) يحتاج إلى عزيمة وحكمة كما أعطاهما الله ـ تعالى ـ إياه وهو لازال صبيا [وآتيناه الحكم صبيا]، وهنا يظهر الفرق بين المشقة والتعب المطلوبين لدى الأنبياء وبصفتهم الرجال وبين مؤانسة النساء في القرآن الكريم، وحتى في اللغة المستخدمة في محاورتهم فيها كلمات دالة على القوة والثبات والعزيمة، بخلاف أسلوب المستخدم مع النساء المليء بالليونة والرحمة والمؤانسة.

وربّ سائل يسأل: بعد هذه الطلبية القوية لمَ أتى الحنان إلى داخل الموضوع وسياق الآية [وحنانا من لدنا وكان تقيا]، والجواب واضح من الآية السابقة [وآتيناه الحكم صبيا]؛ ((ولأن يحيى **(عليه السلام)** جاء إلى الدنيا حال كِبَر وضعف والديه، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشمله بالعطف والحنان، ويُعوّضه حنان الوالدين، ويحتاج إلى مَنْ يُعلّمه ويُربّيه؛ لذلك

تولّى الحق . سبحانه وتعالى . هذه المهمة، فهو . سبحانه . خالقه ومُسمِّيه ومُتولّيه فوهبه حناناً منه سبحانه [مِّن لَّدُنَّا]: من عندنا؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ)) (الشعراوي، 1997: 9045/15).

وقوله تعالى [وزكاة وكان تقيا] أي: طهارة من الذنوب أو كان موفقا للتصديق على الناس، وكان أيضا مطيعا متجنبا عن المعاصي (ينظر: أبوسعود: 295/5)، فهاتان الصفتان أتيتا استرسالا للحنان الآتي من الله، وقد وصف بالتقوى للدلالة على تمكنه من الوصف وكذلك بروره بوالديه [وبرا بوالديه] على كونه تقيا للدلالة على تمكنه من هذا الوصف (ينظر: ابن عاشور،1984 :77/16)، وهاته الأوصاف لن تأتي بسهولة بل لديها رجالها والأنبياء أولى بها، ومن يتصف بهذه الصفات لابدّ من أن يكون خاليا من التكبر والعصيان وهنا أتت أوصافه الأخرى [ولم يكن جبارا عصيّا] أي: لم يكن متجبرا تكبرا عن عبادة الله، وقد ذكر الرازي (ت 606هـ) تسعة صفات مجتمعة معا في هذه الآيات الثلاث ليحيى **(عليه السلام)** (ينظر: الرازي،1420هـ: 517/21)، وبسبب هذه الصفات حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله: مبادئها وعواقبها فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، وذلك يقضي سلامة من الشيطان والشر والعقاب (ينظر: السعدي،2000 :490).

الخاتمة

1. لاينحصر الخطاب القرآني في الرقة والشدة اللتين سلّط البحث الضوء عليهما وإنّما هناك أنواع متعددة من الخطاب المباشر وغير المباشر في القرآن الكريم.
2. خطاب الله المباشر للرجل والمرأة في القرآن يتصف بخطاب متوازن دقيق، ينماز ببلاغته ورويّته في مراعاة كينونة المرأة والرجل، وفيه إثبات لاختلاف هذين الجنسين اختلافا نفسيا وجسميا.
3. الرقة التي تحدث عنها البحث لا تعني أنّ الله . تعالى . قد رفع على النسوة التكلف والمشقة، وإنما أتى الخطاب أحيانا خطابا مباشرا مكلّفا إياهنّ تكليفا يليق بهنّ، لكن هذا التكليف قد صاحب الملاحظات الدقيقة اللغوية التي تمت فيها مراعاة مشاعر النسوة وقدرتهنّ.
4. كذلك الشدة في خطاب الرجال لا تعني أنّ الله . سبحانه . كان قاسيا في الخطاب الموجه لهم، وإنّما كان الخطاب خطابا مباشرا يُفهم من النظرة السطحية إليه أنّه موجه للرجل وقدرته النفسية والجسدية، مع ذلك قد روعي فيه الحالات النفسية الخاصة بالرجل استعدادا لهذه المواقف والإقدام عليها.
5. تثبيتا للنقاط المذكورة: يقول الله . جلّ شأنه . ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ **[البقرة: 286]**، فالرجل برجوليته يتحمل أكثر من المرأة في الحالات العادية والمرأة تتحمل التكليف التي تطيقها فعليا، وهذا دليل على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله . تعالى . لعموم (نفسا) في سياق النفي فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله، وامتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق، بشهادة قوله . تعالى . : ﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...﴾ **[الحج: 78]** وقوله سبحانه : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: 185].**
6. كون المرأة أنثى لا تعني الضعف والدنية في الشأن، قالت امرأة عمران لما وضعت مريم أنثى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ **[آل عمران: 36]** فكأنها انكسرت نفسها حيث كان نذرها بناء على أنّه يكون ذكرا، فجبر الله . تعالى . قلبها وصارت هذه الأنثى أكمل وأتم من كثير من الذكور وأتى من خلالها من المقاصد أعظم مما يأتي بالذكر، وبلغت في التربية والعادة مبلغا عظيما فاصطفاها الله جلّ شأنه.
7. إبراز هاتين الصفتين التي دار حولهما البحث أتى من خلال الكلمات، وكذلك الجمل، وكان للنداء المباشر تجاه المخاطَب دورا فعالا في بيان مقاصد الآيات خاصة في الآيات المتعلقة بالنسوة.
8. خطاب الله . تعالى . المباشر مع النسوة أقل بكثير مقارنة بخطابه . تعالى . مع الرجال، وهذا راجع إلى كثرة الأنبياء والرسل تماشيا معها كثرة تكلف الدعوة إلى الله على كاهلهم.
9. لايجب النظر إلى هذا الموضوع نظرة سطحية إذ يظهر نوعا من الواقعية والشدة في خطاب الله . تعالى . مع النسوة، لكن إذا أمعننا النظر وتفحصنا محتوى الآيات فحصا معجميا ودلاليا وسياقيا نرى أن هذه الآيات تنفرد بالمراعاة الشديدة لكينونة المرأة وحالتها الخاصة المختلفة عن جنس الرجال.
10. بناء على كثرة الآيات المتصفة بالخطاب المباشر للعين من الرجال في القرآن الكريم يمكن دراسة هذه الحالة بشكل أطول وأكثر تعمقا، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ **[البقرة: 35]**، ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ **[هود: 48]**، ﴿يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ **[القصص: 31]** ﴿يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ **[آل عمران: 55]** ، ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ **[المزمل: 5]**.

المصادر والمراجع

1. الإبراهيم، بلال عبدالكريم علي الإبراهيم، خطاب المرأة في القرآن الكريم دراسة أسلوبية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، د.ط، 2012.
2. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت597هـ)، زاد الميسر في علم التفسير، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العربي . بيروت، ط1، 1422هـ.
3. ابن الكثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1999.

4. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت1393ه)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، دار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1984ه.
5. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة (ت 395 ه)، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، 1399 ه - 1979م.
6. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت711ه)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414ه.
7. أبو سعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت982ه)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي-بيروت، د.ط، د.ت.
8. أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت370ه)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط1، 2001.
9. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت745ه)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، د.ط، 1420ه.
10. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت510ه)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط1، 1420ه.
11. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت885ه)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي . القاهرة، د.ط، د.ت.
12. بيدس، والعليمات، هالة حسني بيدس، وفاطمة محمد العليمات، خطاب المرأة اللغوي في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية . جامعة الأردنية، م40، ع2، 2013.
13. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت685ه)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط1، 1418ه.
14. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت816ه)، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1983.
15. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393ه)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين– بيروت، ط4، 1407ه - 1987م.
16. الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت606ه)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط3، 1420ه.
17. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، 1407ه.
18. سراج الدين، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت775ه)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1998.
19. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت1376ه)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
20. السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت489ه)، تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن . الرياض، ط1، 1997.
21. سويد، د. أيمن رشدي سويد، التجويد المصوّر، مكتبة ابن الجزري، ط2، 2011.
22. الشال، أبو عبدالرحمن السيد الشال، المرأة في القرآن الكريم، دار عباد الرحمن، ط1، 2011.
23. الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت1418ه)، المرأة في القرآن الكريم، مكتبة الشعراوي الإسلامية، د.ط، د.ت.
24. الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (ت1418ه)، تفسير الشعراوي . الخواطر ، مطابع أخبار اليوم، د.ط، 1997.
25. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت310ه)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000.
26. طنطاوي، محمد سيد طنطاوي (ت1431 ه)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة، ط1، 1997-1998.
27. العطوي، د.عويض بن حمود العطوي، خطاب امرأة عمران في القرآن دراسة بلاغية تحليلية، بحث منشور: مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، ع7، 1430ه.
28. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت170ه)، العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت.
29. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت817ه)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت، ط8، 2005.
30. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت 671ه)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964.
31. الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت1094ه)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة . بيروت، د.ط، د.ت.
32. نخبة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، ط2، 2009.
33. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت468ه)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية . دمشق، ط1، 1415ه.